الكنيسة و مسئولية خلاص العالم

الأب متى المسكين

...لقد صرنا مثل الكرم الذي كثرت فروعه و أوراقه و قلَّ جوده و إثماره ، فظهر جميلاً من الخارج رديا من الداخل. بمعنى أنه أصبح لنا شكل التقوى و لكننا لا نملك قوتها (2تي 3: 5) أو بمعنى أكثر صراحة أننا صرنا أتقياء فى أعين الناس و أعيننا ، و صدقنا الناس ، و صدقنا أنفسنا و اكتفينا و فرحنا. و لكن فى حقيقة حالنا لا نحمل قوة التقوى و لا فاعليتها. فالهالك لا نقوى على إنقاذه و الساقط لا نستطيع أن نقيمه ، و المكسور و المريض لا نملك شفاءه ، و حتى الضعيف لا نطيق احتماله...!

بل و ياليتنا لما علمنا ذلك انسحقنا و آمنا بنقصنا و بوار حالنا ووقفنا نتضرع أمام الله أن يشفى سقمنا برحمته و يُجبر عجزنا بنعمته و يتدخل هو بذراعه ليصنع خلاصاً بقوته و اقتداره. و لكن عوض البكاء و التوسل عن الذين يسيرون مسرعين فى طريق الموت و الهلاك اكتفينا بخلاص أنفسنا و أغمضنا أعيننا و سددنا آذاننا حتى لا نرى و لا نسمع عدد الذين يهلكون كل يوم ربوات و

ملايين! نصلى السواعى و ننام مرتاحى البال و الضمير ، فما لنا و خلاص الخطاة الزناة الأشرار و الأردياء؟

عندما نرى أو نسمع عن الشباب الذى يسقط كل يوم بالملايين ، نجوز بفكرنا سريعاً غير مبالين ، ندخل مخدعنا بقلب رضى هنى لا نئن و لا نتنهد و لا نتوجع ، و قصة السامرى و اللصوص نمثلها بإتقان مذهل بأكثر هوان و استهتار من الكاهن و اللاوى فيها!!

وكأنما صلوات السواعى و قيام نصف الليل و السجدات – قلت أو كثرت – كفيلة أن تعفينا من تحذير الله المخيف على فم حزقيال النبى: "و قال له الرب أعبر فى وسط المدينة فى وسط أورشليم و سم سمة على جباه الرجال الذين يئنون و يتنهدون على كل الرجاسات المصنوعة فى وسطها. و قال لأولئك – فى سمعى – أعبروا فى المدينة وراءه و أضربوا ، لا تشفق أعينكم ، و لا تعفوا الشيخ و الشاب و العذراء و الطفل و النساء ، أقتلوا للهلاك و لا تقربوا من إنسان عليه السمة ، و ابتدئوا الضرب من مقدسى" (حز 9: 4-6).

و هكذا كل الذين لم يحملوا هَم خطايا الشعب و مفاسده ، و لم يتنهدوا و لم يئنوا على هلاك الخطاة ساواهم الله بصانعى الرجاسات سواء بسواء إذ أجاز قتلهم!!

فيا ويلنا يا إخوتنا إن كنا لا نحمل هَم الخطاة ، و لا نئن و نتنهد الليل و النهار أمام الله فى حزن و بكاء فى المسوح و التراب كما

فعل أباؤنا و نجوا ، نصرخ أمام الله بتوجع من أجل الخاطىء كإبن وحيد لنا ، بل و يا ويلنا إن كنا لا نقف بعزم القلب على أهبة الاستعداد ، أتم الاستعداد ، أن نسلم كل وقتنا و حياتنا ثمناً لعودة الخطاة لحضن المسيح.

و ها هو ذا يجىء موسم الصوم فى هذه السنة و العالم كله يتطلع إلى مَن يخلِّص ، فالضربة بلغت من القدم للرأس ، و الحال بلغ إلى نزاع الموت الأخير و الكل يتطلع إلينا طالباً المعونة بل طالباً برهان الحياة التى فينا ، ألسنا نموت عن العالم كل يوم ؟

و لكن يالحزنى فنحن لا نملك إلا دموعنا و صرنا كالشجرة التى تعوقت عن إعطاء الثمر فى أوان الثمر و صار مصيرها فى خطر ، لأن صاحب البستان يطلب إخلاء الأرض لولا البستانى الكريم الذى وقف يتشفع فيها هذه السنة أيضاً!!

لذلك أدعوكم بفم يوئيل النبى: "أضربوا بالبوق فى صهيون ، قدسوا صوماً ، نادوا بإعتكاف ، اجمعوا الشعب , قدسوا الجماعة ، احشدوا الشيوخ ، اجمعوا الأطفال وراضعى الثدى ، ليخرج العريس من مخدعه و العروس من حجلتها ، ليبك الكهنة خدام الرب بين الرواق و المذبح و يقولوا اشفق يا رب على شعبك ، و لا تسلم ميراثك للعار ، حتى تجعلهم الأمم مثلاً ، لماذا يقولون بين الشعوب أين إلههم؟" (يؤ 2: 15-17...(

"ولكن الآن يقول الرب: ارجعوا إلى بكل قلوبكم ، وبالصوم والبكاء والنوح ومزقوا قلوبكم لا ثيابكم وارجعوا إلى الرب إلهكم لأنه رؤوف رحيم بطى الغضب وكثير الرأفة... و يكون بعد ذلك أنى أسكب روحى على كل بشر" (يؤ 2: 12، 13، 28.(

إذاً ، فحِمل الصلاة عن الكنيسة كلها و العالم كله ملقى عليكم ، الله هو الذى وضعه علينا مع كل تبعاته و تكاليفه الباهظة جداً ، لأنه مطلوب صلاة تحرك السماء ، صلاة بمعاناة و آلام و أحزان عميقة ، صلاة بعرق يتصبب كصلاة جثيسمانى ، صلاة بمخاض كمخاض الولادة ، كما شبهها بولس الرسول بمخاض الحبلى إلى أن يتصور المسيح فى الخطاة فيولدوا!!

أنتم هى البطن التى وضع عليها أن تحمل بالخطاة متوجعة حتى يأتى الطلق بقوة الروح القدس من الأعالى فتلدهم الكنيسة فى سنة مقبولة و زمن خلاص.

لقد صلينا كثيراً و لكن لم نصل الصلاة المطلوبة ، صلاة التوقع التى ما تنتهى إلا بالاستجابة! فالأمر إلتزام هو و ليس اختيار ، فالخاطىء إما يذهب إلى الهلاك وإما يولد للحياة الأبدية ، الفرق شاسع و نحن مسئولون.

ها أنا أقول لكم مثلاً: إن رأيت طفلاً صغيراً لا يدرك شيئاً يقف على طريق قطار قادم بسرعة و أمامك فرصة ضيقة لإنقاذه ، فهل تتركه؟

و لكن ما بالك لو قلت فى نفسك ما شأنى و حياة طفل ، أنا أطلب خلاص نفسى ، و لم تجرى لتنقذه ، هل تخلص نفسك؟ و ماذا تكون نظرة العالم و نظرة أمه نحوك؟ هذا سؤال مرعب!

و لكن هل التوانى فى إنقاذ إنسان من الهلاك الأبدى ، وهو خاطىء لا يعرف مصيره ، أقل رعبة من التوانى فى إنقاذ طفل من تحت القطار؟

هل التوانى فى إنقاذ كنيسة برعاتها و خدامها من روح اللامبالاة من جهة خلاص الهالكين أقل رعبة من التوانى فى إنقاذ طفل من تحت القطار؟

ثم هل التوانى فى إنقاذ أرواح الشباب و الشابات الذين يهلكون بالملايين فى العالم كله أقل رعبة من التوانى فى إنقاذ طفل من تحت القطار؟

أليست هذه خطيئة عظمى أن لا نحس بهلاك الخطاة و لا نتحرك ولا نتوجع ؟ ثم أليست هذه الخطية بالذات هى التى أوقفت عمل الروح القدس فى الكنيسة؟

بل و هذه الخطية بالذات هى التى أدخلتنا فى الظلمة و أصبحنا لا نعلم الطريق و لا إلى أين نمضى لأن الظلمة – ظلمة عدم اللامبالاة بالقريب الهالك – أعمت أعيننا؟

كيف نقول إننا نعيش فى النور و نسلك فى النور و نحن لم نحب أخانا بل أبغضناه بغضة الموت لأننا تركناه يهلك ولا نحرك ساكناً ،

إلا أننا نكذب وليس الحق فينا إن قلنا بعد ذلك إننا نحب الله أو القريب.

حقاً جيد أن نخلص أنفسنا ، و لكن هل جيد أن يهلك أخونا و نحن نملك بالصلاة إمكانية خلاصه بل و خلاص الملايين؟

تقول ما هى مسئوليتى تجاه مَن لم آخذ مسئوليته "أحارس أنا لأخى؟" (تك 4: 9(

إن المسئولية تجاه الخطاة تقع على الكهنة و رؤسائهم الذين أقاموا أنفسهم رعاة لهم. و لكن يرد علينا الرب على لسان أشعياء النبى و يضعنا فى موضع المسئولية العظمى:

"على أسوارك يا أورشليم أقمت حراساً لا يسكتون كل النهار و كل الليل على الدوام ، يا ذاكرى الرب لا تسكتوا ولا تدعوه يسكت حتى يثبت أورشليم (الكنيسة) و يجعلها تسبحة فى الأرض كلها" (إش 62: 6 -7.(

تقول و مَن أنا حتى أحرس الكنيسة كلها و العالم؟

ماذا تفيد صلاتى للملايين و أنا رجل خاطىء؟

إن هذا العمل فوق طاقة البشر ، أليس هو عمل السماء؟

ولكن الكتاب يرد علينا مستشهداً بإيليا و يقول:

"كان إيليا إنسان تحت الآلام مثلنا و صلى صلاة أن لا تمطر (السماء) فلم تمطر على الأرض ثلاث سنين وستة أشهر ثم صلى أيضاًُ فأعطت السماء مطراً و أخرجت الأرض ثمرها" (يع 5: 17(

فهل السماء تسمع و تستجيب لأمر الإنسان من جهة المطر لحياة الزرع و الضرع و لا تسمع و تستجيب من جهة خلاص الإنسان و حياته الأبدية؟

ثم ألم يقل الكتاب إن روح إيليا تقدم أمام الرب ليعد له طريقاً ، و هل انتهى الطريق؟ ألستم أنتم إيليا هذا الزمان؟ و هل الصلاة مجازفة؟ أليست لتمجيد الآب!!؟

ولكن من جهة أخرى ، الرب يؤمن استجابة الصلاة بتأكيد و ضمان شخصى لإتيان المعجزة و فتح السماء:

"الحق الحق أقول لكم من يؤمن بى فالأعمال التى أنا أعملها يعملها هو أيضاً و يعمل أعظم منها لأنى ماض إلى أبى و مهما سألتم باسمى فذلك أفعله ليتمجد الآب بالابن ، إن سألتم شيئاً باسمى فإنى أفعله" (يو 14: 12-14(

و هنا يتكشف لنا أن القضية – قضية الصلاة و استجابتها – انحسرت فى أضيق نطاق ، فالمسيح جعل شرطها الوحيد: "مَن يؤمن بى."

إذاً ، فهلاك الخطاة يتحدى إيماننا ، و الشيطان يتحدى إيماننا ، بل و محنة العالم كله هى بسبب عدم إيماننا ، و نوم الكنيسة و ضعف الرعاة هو من صنع ضعف إيماننا!!

فهل نصمت إزاء هذا التحدى؟ أنقبل على أنفسنا دينونة هؤلاء الهالكين؟ بولس الرسول يدعوكم:

"جربوا أنفسكم هل أنتم فى الإيمان ؟؟ أمتحنوا أنفسكم أم لستم تعرفون أنفسكم أن يسوع المسيح هو فيكم؟" (كو 13: 5(

إذا ، هل آن الأوان أن نصارع مع الله فى الصلاة حتى مطلع الفجر أو حتى الموت؟

فيتزكى إيماننا و يستجيب الصلاة ، و تأتى المعجزة و تنفتح السماء ، و يرسل الله قوة من الأعالى تحرك الكنيسة كلها لتكميل الخلاص بسلطان الروح و بقوة و حرارة فيعترف الجميع و يتوبون و يقبلون عطية الله كالأول حتى تأتى أزمنة الفرج من عند الرب.

لماذا فقدنا روح آبائنا و روح أنبيائنا ، هؤلاء الذين حركوا السماء بل حركوا قلب الله؟ فهل عسير علينا أن نعمل ما عمل دانيال:

"فوجهت وجهى إلى الله السيد طالباً بالصلاة و التضرعات بالصوم و المسح و الرماد و صليت إلى الرب إلهى و اعترفت... و بينما أنا أتكلم و أصلى و أعترف بخطيئتى و خطيئة شعبى إسرائيل و أطرح تضرعى أمام الرب إلهى... و أنا متكلم بعد بالصلاة إذا بالرجل جبرائيل... لمسنى و فهمنى و تكلم معى و قال... فى ابتداء تضرعاتك خرج الأمر ، و أنا جئت لأخبرك لأنك محبوب" (دا 9: 3-23(

و الله استجاب إلى دانيال استجابة فورية.

أو هل صعب علينا ما فعله نحميا:

"فلما سمعت هذا الكلام جلست ، و بكيت و نحت أياماً و صمت و صليت أمام إله السماء... و قلت يا سيد لتكن أذنك مصغية إلى صلاة عبدك و صلوات عبيدك الذين يريدون مخافة اسمك ، اعط النجاح اليوم..." (نح 1: 4 -11.(

و نعلم أن الله استجاب لنحميا جداً و أنجح كل مسعاه لتجديد أورشليم.

ثم هل نحن بكل مذخرات النعمة و عمل الدم الإلهى و مجد الصليب و ظفر القيامة و مواهب يوم الخمسين أقل من أنبياء العهد القديم؟

أعود فأذكركم ، يا أحباء الرب ، أن العيب و الملامة ليست فى الكنيسة النائمة ، و لا فى الشباب المنحل و لا فى العالم المستبيح ، ولكن العيب فينا و الملامة علينا نحن الذين أقامنا الله حراساً بالصلاة على أسوار أورشليم نحرس الكنيسة فى نوباتنا السواعية الليلية و النهارية ، فانشغلنا فيما لأنفسنا فارتدت صلاتنا إلى حضننا و لكن شكراً لله الذى لا يزال يلح طالباً يقظتنا مرسلاً صوته لنا فى الصوم الأربعينى موسم الصلاة و البكاء و النوح و التوبة و لبس المسوح و الجلوس على الأرض كالأيام الأولى.

و الكنيسة من حولنا تردد ألحانها الحزينة و كأنها تذكرنا بالضحايا الذين خرجوا من حضنها و لن يعودوا و كأنها توقظ فينا عقدة الذنب لعلنا نقوم و نغير غيرة الرب لنحفظ ما بقى.

الأب متى المسكين

من كتاب (الصوم الأربعيني المقدس(